عبد القاهر الجرجاني والبنيوية



مسجد جرجان



أ.د. عبد النبي اصطيف
سورية

أستاذ الأدب المقارن في جامعة دمشق

يستطيع الناظر في آثار عبد القاهر الجرجاني أن يتبين بسهولة أنه كان رائداً من روّاد البنيوية: بدءاً باعتماده مقولة "العلاقة" التي تحكم دلالة أي مكوِّن من مكوِّنات الإنشاء الأدبي، وانتهاء بإفادته من اللسانيات عندما حاول أن يستلهم الأنموذج اللغوي من جانب، ويوظِّف من جانب آخر التقانات ووسائل التحليل اللسانية، وأدوات هذا العلم، في دراسته للظاهرة الأدبية في عصره، وخاصة ما اتصل منها بإعجاز القرآن الكريم.

يسعى هذا البحث المركّز إلى توضيح تفكير الجرجاني البنيوي من خلال الإشارة إلى نظرية النظم لديه (والتي عرضها، ومثّل على مختلف وجوهها، في كتابه دلائل الإعجاز) التي أرادها نظاماً أدبياً يحكم إنشاء النص القرآني.. نظاماً أدبياً Literary System يعادل النظام اللغوي Langue، أو يقوم مقامه في علاقته بالكلام أو الـ Parole.

***

ليس ثمة من يُماري في حقيقة الصلة الوثيقة بين اللسانيات والبنيوية. صحيح أن ملامح من التفكير البنيوي قد وجدت في مراحل مختلفة من تاريخ الفكر الإنساني، غير أن الثورة التي فجرتها اللسانيات الحديثة، ولاسيما كتاب فردينان دو سوسير Ferdinand de Saussure مساق في علم اللغة العام Course de linguistique générale، في العلوم الإنسانية بشكل خاص، تجلت أوضح ما تجلّت في التفكير العلائقي الذي هو جوهر البنيوية، الذي ينظر إلى العناصر المكوّنة لأية ظاهرة إنسانية على أنها ذات معنى ودلالة وأهمية من خلال موقعها في شبكة العلاقات التي تحكمها.

وإذا ما انتقلنا إلى العلاقة بين اللسانيات والبنيوية في مجال النقد الأدبي؛ فإننا نجد أن المسعى البنيوي في النقد الأدبي قد اتخذ وجهتين رئيسيتين:

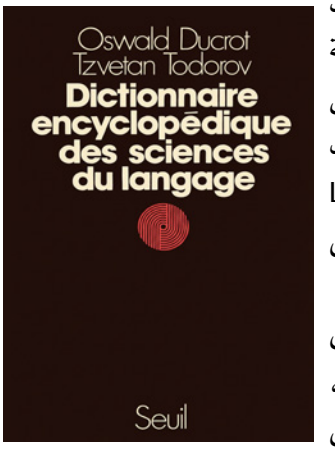
الوجهة الأولى: محاولة الإفادة من الأدوات والوسائل والمصطلحات التي يستخدمها علم اللسان الحديث في تحليله للإنشاء اللغوي. ذلك أن اللسانيات الحديثة، في الحقيقة، تزود ناقد

الأدب بأدوات فعّالة جداً في تحليل النصوص، وبمصطلحات وصفية دقيقة تجعل عمله أكثر التصاقاً بموضوع اهتمامه، وهو النص الأدبي، وتسهّل عملية استيفائه لدراسة مختلف وجوه هذا النص ومستوياته.

الوجهة الثانية: هي محاولة الإفادة من الأنموذج اللغوي[1] Linguistic Model الذي يقدمه النظام اللغوي نفسه.

ففي تفحصنا اللغة –أية لغة- نواجه الأشكال المختلفة للممارسة اللغوية أو الكلام Parole من جهة، ونواجه كذلك النظام اللغوي Langue الذي يحكم إنتاج هذه الأشكال من جهة أخرى.

وإذا ما انتقلنا إلى ميدان الأدب فإننا نواجه الأشكال المختلفة للممارسة الأدبية أو النصوص الأدبية من جهة، ونواجه كذلك النظام الأدبي Literary System الذي يحكم إنتاج هذه الأشكال من جهة أخرى.



ومعنى هذا أن الناقد البنيوي يستطيع، إذا ما حلّل هذه الأشكال، أن يستخرج النظام الأدبي الذي يحكم إنتاجها بوصفها إنشاءات أدبية فردية، فيضع يده على "نظرية الأدب الداخلية" أو الشعرية (Poetics) كما يسميها بعض النقاد العرب المعاصرين. والشعرية، كما حددها تزفيتان تودوروف[2] في المعجم الموسوعي لعلوم اللغة (الذي ألفه بالاشتراك مع أوزوولد دوكرو)، هي: "أية نظرية داخلية للأدب"، وهي كذلك "الخيار الذي تبناه مؤلف ضمن جميع الممكنات الأدبية (على نظام الموضوعاتية، والتأليف، والأسلوب، وهكذا)"، ... "والقوانين المعيارية التي أنشأتها مدرسة أدبية؛ أي إلى مجموعة من القواعد العملية الواجب استعمالها"[3].

والحقيقة أن جميع المساعي البنيوية للنقاد المعاصرين في الغرب كانت تمضي أساساً في واحدة من هاتين الوجهتين. ورولان بارت، وتزيفيتان تودوروف، وجيرارد جينيت، وجوليا كريستيفا، وجاك ديريدا، من أبرز الأمثلة على هذا المسعى.

والناظر في آثار عبد القاهر الجرجاني يتبين بسهولة أنه كان رائداً في الإفادة من اللسانيات، وأنه حاول أن يستلهم الأنموذج اللغوي من جانب، ويفيد من جانب آخر من التقنيات ووسائل التحليل اللغوية، وأدوات هذا العلم في دراسته للظاهرة الأدبية في عصره، وخاصة ما اتصل منها بإعجاز القرآن الكريم.

ويتضح هذا أكثر ما يتضح من خلال الإشارة إلى نظرية النظم لديه (والتي عرضها ومثّل على مختلف وجوهها في كتابه دلائل الإعجاز) التي أرادها نظاماً أدبياً يحكم إنشاء النص القرآني-نظاماً أدبياً Literary System يعادل النظام اللغوي Langue، أو يقوم مقامه في علاقته بالكلام أو الـ Parole. وكذلك فإنه حاول الإفادة إلى درجة كبيرة من المصطلحات والتقانات التي يتيحها جانب معين من جوانب النظام اللغوي (وهو الجانب التركيبي Syntactic أو النحوي)، ففسر كل ما يدخل في إطار البلاغة العربية من بيان ومعان من خلال العلاقات النحوية.

وربما كان السبب في هذا التوازي في عمل الجرجاني بين النظام اللغوي من جهة، والنظام الأدبي من جهة أخرى، هو التوازي الذي نجده في تكوينه الثقافي وفي إنتاجه، بين هذين النظامين. فشيوخ الرجل موزعون بين النحو والبلاغة،

وكذلك كتُبُهم التي قرأها عليهم، فهي إما متصلة بالنظام اللغوي، أو متصلة بالنظام الأدبي.

وكذلك فإن إنتاجه أيضاً موزع بين النقد والبلاغة من جهة وبين النحو واللغويات من جهة أخرى.

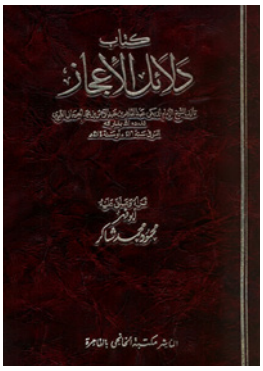
يبدأ التوازي إذن بالتكوين الثقافي للرجل، ويتخلل إنتاجه كله، وينتهي بتحديد منظوره الذي يحاول من خلاله أن يتناول ظاهرة الإعجاز القرآني.

والجرجاني في إفادته من اللغويات لا يفيد فقط منها في مجال استلهام الأنموذج اللغوي، بل في مجال استخدام التقنيات والوسائل والأدوات التي يتيحها النظام اللغوي أيضاً. ولعل إشارة برقية إلى ما جاء لدى الجرجاني حول نظرية النظم تُسعف في إيضاح ماتقدّم من إيجاز عن عمل الجرجاني.

يعرف الجرجاني النظم فيقول: "واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علماً لايعترضه الشك أن لا نظم في الكلم، ولا ترتيب، حتى يُعلَّق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب تلك..."[٤].

ولكن كيف يتم هذا التعليق، ويتحقق ذلك البناء، ويوجد ذلك السبب؟

يقول الجرجاني إننا إذا نظرنا في ذلك: "علمنا أن لا محصول لها غير أن تعمدَ إلى اسم فتجعلَه فاعلاً لفعل أو مفعولاً، أو تعمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبراً عن الآخر، أو تُتبع الاسم اسماً، على أن يكون الثاني صفة للأول، أو تأكيداً له، أو بدلاً منه، أو تجيء باسم بعد تمام كلامك، على أن يكون الثاني صفةً أو حالاً أو تمييزاً أن تتوخى في كلام هو لإثبات معنى أن يصير نفياً، أو استفهاماً أو تمنياً، فتدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك، أو تريد في فعلين أن تجعل أحدهما شرطاً في الآخر، فتجيء بهما بعد





الحرف الموضوع لهذا المعنى، أو بعد اسم من الأسماء التي ضمنت معنى هذا الحرف، وعلى هذا القياس". (ص٤٤-٤٥)[٥]. أي أن الروابط، أو العلاقات ما بين الكلم تقوم على أساس لساني تركيبي أي نحوي.

ويقول في موضع آخر: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله. وتعرف مناهجه التي نهّجت. فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت فلا تخلّ بشيء منها، وذلك أنّا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك.. زيد منطلق، وزيد ينطلق، وينطلق زيد، ومنطلق زيد، وزيد المنطلق، والمنطلق زيد، وزيد هو المنطلق، وزيد هو منطلق.

وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك: إن تخرج أخرج، وإن خرجت خرجت، وإن تخرج فأنا خارج، وأنا خارج إن خرجت، وأنا إن خرجت خارج.

وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك: جاءني زيد مسرعاً، وجاءني يسرع، وجاءني وهو مسرع أو هو يسرع، وجاءني قد أسرع، وجاءني وقد أسرع؛ فيعرف لكل من ذلك موضعه، ويجيء به حيث ينبغي له، وينظر في الحروف

التي تشترك في معنى، ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى، فيضع كلًّا من ذلك في خاص معناه". (ص٦٤).

وبسبب اهتمامه بهذا النظام الأدبي فإنه لا يكتفي بعرضه، بل يحاول أن يرد شبهات كثيرة قد تثار حوله. فعلى سبيل المثال: يؤكد الجرجاني أن النظم "ليس نظم الحروف"، وذلك "أن نظم الحروف هو توليها في النطق، وليس نظمها بمقتضى عن معنى، ولا الناظم لها بمقتف في ذلك رسماً من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه له ما تراه، فلو أن واضع اللغة كان قد قال: (ربض) مكان (ضرب) لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد"، "وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني" (ص٤٠).

والنظم كذلك ليس نظم ألفاظ، فالمقصود بنظم الكلم ليس "أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالاتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل" (ص٤١)، والنظم يكون في معاني الكلم دون ألفاظها، "وإن نظمها هو توخي معاني النحو فيها" (ص٣١٧).

وتوخي معاني النحو الذي يكون به النظم لا يقصد لذاته، بل للوظيفة التي يؤديها، فليس المهم في النظم معرفة معاني النحو، بل استعمال هذه المعاني وتوظيفها في الإنشاء التي ينشئه الناظم، فالبدوي لا يعرف قواعد النحو، وهو لا يدرك أنه يتوخاها في إنشائه. ولكنه مع ذلك يحسن استخدامها، وهذا يكفينا. فالقضية قضية وظيفية محكّها التطبيق العملي، وليست مجرد معرفة نظرية.

وأخيراً فإن النظم لا يهمِل أو يغفل معاني المفردات. فإدراك هذه المعاني خطوة أولى لا بد أن تتبعها خطوة متممة، هي إدراك معاني هذه المفردات مجتمعة، أو بعبارة أكثر دقة مما يتكون من اجتماعها من معنى: "... فمجموع الكلم معنى واحد، لا عدة معان"، و"اتحاد الكلم ليس معناه اتحاد ألفاظها، بل اتحاد معانيها". فالفكر ينصرف إلى معاني الكلم مجتمعة. ومعنى هذا أن المعنى الكلي هو المقصود، أو المعنى الحاصل من نظام العلاقات الذي يكفله النظم بين معاني الكلم المفردة.

وثانية يؤكد عبد القاهر: "أن الفصاحة لا تكون في أفراد الكلمات، وأنها إنما تكون فيها إذا ضُمَّ بعضها إلى بعض"، "ذاك لأنه ليس من عاقل يفتح عين قلبه إلا وهو يعلم ضرورة أن المعنى في ضم بعضها إلى بعض، تعليقُ بعضها ببعض، وجعلُ بعضها بسبب من بعض، لا أن ينطق ببعضها في أثر بعض من غير أن يكون فيما بينهما تعلق، ويعلم كذلك ضرورة -إذا فكّر- أن التعلّق يكون فيما بين معانيها لا فيما بينها أنفسها. ألا ترى أنا لو جهدنا كل الجهد أن نتصور تعلّقاً فيما بين لفظين لا معنى تحتهما لم نتصور". (ص ٣٥٩).

وربما كان من الحكمة التوقف عند هذه النقطة للإشارة إلى مسوغات الإفادة من معطيات علم اللسانيات في المسعى البنيوي في ميدان النقد الأدبي.

إن اللغة بمجموعها تشكل نظاماً راقياً جداً من أنظمة العلامات Sign Systems، وكذلك الأدب فهو نظام علامات أيضاً. وبسبب هذه المشابهة بين اللغة والأدب فإنه يمكن الإفادة من اللسانيات في دراسة الأدب، والالتفات إلى النحو العلائقي في تفحص نصوصه.

وهناك أمر آخر، وهو أن الأدب يستخدم اللغة أداة له، وهي موضوع علم اللسانيات، وربما كان من الجدير بالذكر أن اهتمامنا في كلا الأمرين ينبغي أن ينصرف إلى دراسة العلامة Sign مقترنة

بدلالتها، ومعنى هذا أننا نهتم بالمعنى أو بإنتاج هذا المعنى، فنبحث عن القوانين والأعراف والقواعد والإجراءات التي يستخدمها الأدباء ضمناً -وهم نادراً ما يفصحون عنها في عملية إنتاجهم للأدب- ونوضحها للقارئ أو المتلقي.

إن إنتاج المعنى أو الدلالة هو ما يحفل به الناقد البنيوي، وبعبارة أخرى: إنه يُعنَى بكيفية إنتاج الدلالة من خلال تفحصه للنظام العلاماتي Sign System الذي يحكمها والذي نشأ في حضن المجتمع.

والواقع أن الحافز الأساسي لعمل الجرجاني في نظريته في النظم هو عملية إنتاج المعنى أو الدلالة في الإنشاء الأدبي -القرآني على وجه الخصوص- والتي وجد أنها تقوم على النحو، أو التركيب Syntax، أو علائق الكلم فيما بينها.

بقيت نقطة أخيرة.. وهي أن الجرجاني في إفادته من معطيات اللسانيات في استلهامه للأنموذج اللغوي Linguistic Model أو في استخدامه للتقنيات التحليلية الفعّالة التي يتيحها هذا العلم المهم في وضعه لنظريته في النظم، إنما انطلق من طبيعة الأدب العربي نفسه، من تحليله للنصوص الأدبية العربية، بدءاً من القرآن الكريم، وانتهاءً بالشعر العربي من العصر الجاهلي وحتى القرن الخامس الهجري.

خاتمة:

وهكذا يتبين لنا أن الجرجاني قد انطلق في مقاربته للأدب من طبيعة الأدب العربي، ومن مثاله الأعلى -البيان الإلهي، أو القرآن الكريم، ووجد أن أفضل مقاربة له هي المقاربة اللسانية التي تدرس الإنشاء الأدبي على ضوء النظام الأدبي الذي يحكمه، تماماً كما يدرس اللساني الإنشاء اللغوي الفردي Parole على ضوء النظام اللغوي Langue الذي يحكمه، فاتخذ من المستوى التركيبي للنظام اللغوي العربي أساساً بنى عليه نظريته في النظم، أو التأليف.

ولم يكتف بذلك، إذ إنه استخدم في تحليله للإنشاء الأدبي العربي (نصوص القرآن الكريم، والشعر العربي) المصطلح اللساني مفيداً من دقته ووضوحه، فجمع بذلك بين الفهم العميق لطبيعة الأدب من جهة، وبين الفهم المماثل في عمقه للنظام اللغوي الذي يحكم أداة هذا الأدب من جهة أخرى.

الهوامش

(١) انظر لمزيد من المعلومات عن الأنموذج اللغوي:
Raman Selden, "Introduction", in: The Cambridge History of Literary Criticism: Vol. VIII-Literary Criticism from Formalism to Poststructuralism, Edited by Raman Selden (Cambridge University Press, Cambridge, ٢٠٠٥), pp. ٤-٦.

(٢) ربما يحسن بالمرء الإشارة إلى أن تودوروف كان من مؤسسي مجلة Poétique المعروفة، ومحرريها، والتي عنيت بنظرية الأدب الداخلية بشكل خاص. وانظر:
Peter Brooks, "Introduction", in:
Tzvetan Todorov, Introduction to Poetics, Translated from the French by Richard Howard, Introduction by Peter Brooks (University of Minnesota Press, Minneapolis, ١٩٨١), p. VIII.

(٣) انظر:
Oswald Ducrot and Tzvetan Todorov, Encyclopedic Dictionary of the Sciences of Language, Translated by Catherine Porter (Blackwell, Oxford, ١٩٨١), pp. ٧٨-٧٩.

(٤) انظر: الإمام عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز (في علم المعاني)، صحح أصله علامتا المعقول والمنقول (الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية)، والأستاذ اللغوي المحدث الشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي، ووقف على تصحيح طبعه وعلق حواشيه السيد محمد رشيد رضا، (دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٨١م)، ص٤٤.

(٥) تشير الأرقام الموضوعة بين قوسين إلى أرقام صفحات المصدر السابق.